الفالس الكبير

قصة للكاتبة السوفياتية ايفاجوف

ترجمها عن الروسية رضوان ابراهيم

تعريف

من الكتب الواسعة الانتشار بين القراء للكاتبة السوفييتية أينا جوف : « انا الغابة » ، و « خفقات قلب » ، و « نقطة الفليان » ، و « بهذا لا يمكنك ان تكون » ، « التليفون يدق في الليل » ، و « أحلام الشمال » ، وآخر كتاب لها صدر عام ١٩٦٥ بعنوان « لاتصدق المرآة » ، ويضم قصة طويلة بهذا العنوان ، وبضع قصص قصيرة من بينها : « حجر الياقوت العجيب » ، و « طابور الكيروسين » ، و « العربة » ، و « الملازم ليلكين » ، و « الفالس الكبير » ، و « سكفورشكين الجريح » ، وكلها تدور حول الحرب وويلاتها .

وقصة « لا تصدق المرآة » قصة طويلة تحكي حياة اسرة سوفييتية ، بها ثلاثة اجيال من النساء ، والشخصية الرئيسية فيها وهي أناميجونوك ، امرأة تعيش حياة شاقة وشريفة ، مات زوجها الاول برصاصة قاطع طريق ، والثاني في أبان الحرب الوطنية ، ولكن هذين المفقودين لم يحطما في نفسها التفاؤل والطموح الى السعادة ، وتاريخ أنا وابنتها فيرا وحفيدتها تانيا ، يشكل موضوع هذه القصة الجميلة .

وقصة « حجر الياقوت العجيب » مخصصة للشهر الاول من الحرب العالمية ، ومعروضة من خلال احاسيس شابة في الرابعة عشرة، مودعة من مواطني المدينة ، وعن المشقات الاولى والخسائر الاولى للحرب ، وآلام الفراق ، وغيرها من مضامين هذه الاقاصيص .

واسلوب الابداع عند ايفاجوف يتميز بالسرد الشاعري السهل ، والقدرة على التغلغل في لب الظواهر ، والامزجة ، والثقة بالنفس ، والعلاقات الانسانية المتبادلة .

القصة

هذا هو اسم الفيلم الذي كان يعرض على شاشة السينما قبل الحرب بفترة وجيزة ، ويحكي عن حياة المؤلف الموسيقي العظيم يوجان شتراوس ، الذي كان أهله يدعونه شاني .

لقد تزوج المؤلف الكبير من بولدا المثيرة ، ابنة بائع الخبز ، حين لم يكن قد وصل بعد الى قمة المجد ، اما المغنية الجميلة المتألقة كارلا دونير فقد كان بينها وبينه حب ماسوي كبير .

في هذه السنوات لم تكن دور العرض تدللنا بهذه الافلام ، ففيلم « الفالس الكبير » قد ظفر بنجاح لم يسبق له مثيل ، وعرض خمسا.. وعشرا .. وخمس عشرة مرة ، وشاهده جدي الصيدلي الاوديسي القديم ، ذلك الانسان الذي يحيا حياة متحفظة قاسية ـ شاهد « الفالس الكبير » اثنتين وعشرين مرة ، ولهذا كان يقال عنه في البيت، وعلى سبيل المزاح ، انه عاشق كارلا دونير .

كان الجد في هذه الاونة في عامه الستين ، وفي الحقيقة انه كان يمكن ان يحب ، وهذا الحب الاخير قد منحه حرارة تشبه دفء شمس الغروب .

وكارولا دونير التي لعبت دورها الممثلة ميليتسا كوريوس ـ كانت متألقة فاتنة ، وكنا نحلم ، نحن الفتيات ، مجرد حلم فقط ، بأن نتشبه بها ، او نسلك سلوكها . او نفوز بقدر من هذا النبل والفخار .

هذا هو المؤلف الموسيقي الشاب المتطرف ، وقد احتار في دوامات الارضية المخرمة لثوبها المصنوع من الدانتيل . وتساله هي :

ـ « أضيق هو ؟ »

كم في هذا السؤال من التهكم والسخرية الهادئة . ثم وهي تقول:

ـ « سوف اعاونك .. وساعمل هذا بمنتهى السهولة » .

وتمزق الدانتيل غير آسفة على الثوب .. هكذا مزقت الثوب بجرأة ، بعد ان ساعدت شاني على ان يقوم بعملية الاختيار بينها وبين بولدا ، ويرفض حبها . سوف يظل يوجان شتراوس يذكرها طوال حياته ، ويكرس لها كل الحانه ، لان الحزن على الآمال الضائعة يذكي جذوة الفن .

وأطل الشيخ العجوز من شرفته على الجماهير المحتشدة في يوم الذكرى لتحية المؤلف الموسيقي المحبوب ، فرأى من خلال الدموع الغائمة كيف تبرز شخصيتها الشابة الجميلة ، لا بين الجمهور ، ولكن فوق الجمهور .

لقد شاهدت فيلم « الفالس الكبير » ثلاث مرات .

كانت المرة الاولى في الجنوب ، في الهواء الطلق ، تحت السماء المفتوحة ، وتحت نجوم القوقاز ، بين الاشجار الخضراء الداكنة التي ترسل حفيفها في الظلام من وراء سياج دار السينما الصيفية ، وبين الصوت البلبلي النسائي على الشاشة ، والشعور بالحب ، وهداة القلوب الرقيقة السعيدة .

كنت يومها في الثالثة عشرة من العمر ، كنت أصغر من في الصالة جميعا ، ولكنهم سمحوا لي بالدخول ، لانني ابنة معاونة المسرح .

وانصرف الجمهور ، والناس يتنهدون ، ويجففون دموعهم ، والنساء في ثيابهن الحريرية الزاهية ، والرجال في حللهم المفصلة قبل الحرب ، وهم نزلاؤنا في دار الاستجمام .

كانت لي ضفائر سوداء صغيرة ، ومرفقان نحيفان خشنان ، وكانت لدي رغبة شديدة في ان اكون هكذا مثلما كانت كارولا دونير ، ولقد عرفت أنه كان لهذا الحب مفخرتان : مفخرة تقبل ، ومفخرة ترفض ، لا .. لا ، ان مفاخر بولدا لا تليق بي ...

من الجائز ان اكون قد عرفت هذا فيما بعد ، ففي هذا المساء ، حينما نام الجميع ، لبست ملابسي من جديد ، ومن مدخل النافذة الضيقة قفزت الى الحديقة .

كان الليل مقمرا ، وكان ناصع الضياء بالنسبة للجنوب ، وباندفاع ولذة تضوعت ازهار الجنوب ، وفي المبنى الرئيسي للمصح انطفأت جميع النوافذ ، اما الابواب الداخلية للشرفات الدائرية الطويلة فكانت مفتوحة . كان الليل دافئا ، الا انه كان خانقا . واردت ان يحبني أي انسان، في اي وقت ، على ان يكون حبنا هكذا جميلا وعنيفا ، كحب

شاني وكارولا دونير . واعتصر قلبي هكذا ، كما لو كنت في هذه الساعة أفارق الى الابد حبيبا أحببته طوال حياتي .

والمرة الثانية التي شاهدت فيها « الفالس الكبير » كانت أبان الحرب في احدى مدن سيبيريا ، وفي دار من دور السينما القديمة الباردة ، حيث كان المشاهدون يقرضون حبات الفول السوداني ، ويطلقون الدعابات اثناء عرض الفيلم .

كان ذلك في عرض نهاري ، وكان كثير من الصبية والاطفال والراشدين قد وصلوا قبل الموعد ، وهم أولئك الحكماء الذين وصلوا الى الحكمة لا عن طريق السن .

وحينما تبادل البطلان القبلات على الشاشة انطلق صفيرهم في غضب ، وفجأة حدث شيء ما في الصالة ، لقد خفتت الضحكات ، وتوقفت اصوات قرض الفول السوداني ، فقد اقلعت الصالة مع السفينة التي تحمل يوجان شتراوس الى اعالي الدانوب .

كنا نجلس في الصف الاخير ، وكنت في الخامسة عشرة من العمر، ولم نكن قد تبادلنا القبل مرة واحدة ، ولكن ايدينا كانت تتشابك فحسب . كم كان ذلك مخيفا في بادىء الامر . انني اتذكر يده وهي تقترب مني ، ونظرته المتجهة الى الشاشة ، وتقارب أيدينا ببطء ، وحينما مستني يده جذبت يدي ، ولسبب ما اخذت اسوي خصلة من شعري الذي تهدل من تحت القبعة ، ومن جديد ارحت يدي على ركبتي . لم يعد ينتظر طويلا لكي يتناول يدي . اننا نجلس الآن دون ان نحول انظارنا عن الشاشة ، خشية ان يفتضح امرنا . كيف ينبغي ان نحب ؟ هل يمكن ان يكون هذا هو الحب الذي كان بين شاني وكارولا ؟ هل يمكن والحرب قائمة ، والعدو على نهر الفولجا ، والمستشفيات غاصة بالجرحى ؟

أن آباءنا في الجبهة ، وابناء مدينتنا في الاسر ، ومن المحتمل ان يشتتنا القدر غدا في مختلف الجهات ، والا نلتقي بعد ذلك ابدا ، او نلتقي اخيرا وبعد فوات الاوان ، بعد ان يكون لكل منا حياته الخاصة وطريقه الخاص ، وقد يتوقف بنا الى الابد شتاء الحرب ، ودار السينما الدافئة ، والصف الخلفي ، ومسار الاشعة الشاحبة المنبعثة من غرفة السينما ، وايدينا المتشابكة ، والاصوات النسائية التي تشبه اصوات البلابل على الشاشة .

منذ وقت غير بعيد تسلمت منه رسالة :« لقد عرض في مدينتنا من جديد ، وبعد مرور بضع سنوات ، فيلم « الفالس الكبير » ، وقد ذهبت بالطبع لمشاهدته ، ومرة اخرى اقتنعت بالا اكرر ما سبق، فعبثا نحاول ان نحتمل مرة اخرى . انني لاسال نفسي عن شيء واحد : اذا كان « الفالس الكبير » سيعرض في مدينتنا .. أفلا تذهبين .. »

لقد تأخرت هذه الرسالة ، وكانت لدي الفرصة لان اشاهد للمرة الثالثة فيلم « الفالس الكبير » ، لقد جدد هذا الفيلم القديم ، ولاول مرة ترجم نطقه ، وكان قبل الحرب مصحوبا بترجمة مكتوبة على الشاشة .

كان هذا الفيلم ضمن سلسلة من الافلام التي تصور حياة عظماء الفنانين .

جلست في الصالة المظلمة ،في الصف الاخير ، وكانت هذه احدى دور السينما الجديدة المكيفة الهواء ، ذات الشاشة العريضة ، والواجهة النظيفة المزينة بالاضواء الباهرة .

وحينما انتهى عرض الفيلم ، وتحركت ببطء بين الجموع نحو باب الخروج ، كنت اشاهد وجهه هذا ، كان بين الناس كثيرون ممن تقدموا في السن ، وربما كان هنا بين هؤلاء الناس شخص ما ، شخص شاهده معي لاول مرة في ليلة من ليالي الجنوب الدافئة ، تحت النجوم ، في الصيف الاخير قبل الحرب .

ثم تذكرت من بعد ذلك جدي ، لقد مات منذ امد طويل ، فلم يتيسر له ان يشاهد « الفالس الكبير » للمرة الثالثة والعشرين ..

ترجمة رضوان ابراهيم

الشوارع العارية

رواية تأليف

فاسكو براتوليني

ترجمة ادوار الخراط

صدرت حديثا

صورة الفنان في شبابه

رواية تأليف

جيمس جويس

ترجمة ماهر البطوطي

صدرت حديثا

منشورات دار الآداب ـ بيروت ـ ص . ب ٤١٢٣